الإستدلال في إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني

الطالبة: بلعربي شهرزاد — إشراف الدكتور: زروقي عبد القادر

جامعة تيارت ـ الجزائر — جامعة تيارت ـ الجزائر

نحاول أن نبين من خلال هذا البحث أهمية المنهج الاستدلالي لدى العلماء العرب ومدى اشتغالهم به لاستخلاص القوانين واستنباط الأحكام المعللة، والمبنية على مبادئ المنطق الصحيح، ولاسيما علماء الإعجاز وفي كتاب "إعجاز القرآن" للباقلاني سنحاول أن نقرأ حضور هذا المنهج بمختلف صوره المباشرة منها أو غير المباشرة منها كالقياس أو الاستقراء بالإضافة إلى الاستدلال الذي يعتمد على أدلة جاهزة سواء كان ذلك من القرآن نفسه أو من السنة أو حتى من التراث العربي كالشعر العربي الجاهلي أو كالمأثور من الأقوال (الحكم والأمثال) بغية الوصول بكل هذه الأدلة والحجج إلى الإقناع وترسيخ حقيقة إعجاز القرآن.

Résumé: Nous essayons de montrer à travers cette recherche, l'importance des programmes d'études déductives des savants arabes et l'utilisation de celles-ci pour tirer profit des lois et d'en tirer des décisions motivées et fondées sur les principes de la logique exacte, en particulier les savants scientifiques des miracles dans le livre "I3djaz El Coran" de Baqllani .On va essayer de lire la présence de cette approche dans les diverses formes direct ou indirect comme Al-Kiess ou induction. En plus de la déduction qui est basée sur des preuves tirées du Coran lui-même, de la sunnah, ou même de l'héritage pré-islamique arabe telles que la poésie arabe ou Almaathor des mots (citations et Proverbes) Afin d'atteindre cette preuve et les arguments convaincants pour établir la réalité d'El I3djaz du Coran.

تنوعت المصادر التي أسست الفكر البلاغي العربي، ولكنها كانت كلها تصبو إلى غاية واحدة، وهي فهم الخطاب القرآني أو إلى إثبات إعجاز القرآن والتصدّي إلى هجمات المشككين أو الطاعنين في مصداقيته، جاعلة من الشعر العربي لاسيما الشعر الجاهلي الركيزة التي تستند إليها والساحة الفسيحة التي يتم فيها البحث والتحقيق "إن البيئات التي ساهمت في صرح البلاغة العربية هي بيئات متعددة المشارب والاهتمامات، ولكن يجمعها أنها مشدودة إلى النص القرآني تستلهم جماليتها وتلتفت إلى إجماليات روائع الشعر العربي تستخلص منها القيم البلاغية "[1]، وهذه القيم كان عليها أن تقوم على معايير موضوعية، منطقية حتى ترقى إلى مصاف العلوم العالمية. وقد يكون المنهج الاستدلالي أقرب إلى الموضوعية لاستنباط الأحكام والوصول إلى الحقائق واستنتاج القواعد العامة وإدراك خصوصية كل نوع.

وإن من أهم العوامل المساعدة على تغيير المفاهيم، والانتقال من إصدار الأحكام غير المعللة التي تعتمد على الذوق إلى أحكام أكثر دقة تقوم على دلائل هي انكباب العلماء سواء أكانوا فقهاء متكلمين أم لغويين إلى البحث في مسألة "الإعجاز القرآني" ومنه تم انتقال هذا المنهج من حقول هذه العلوم إلى حقل علم البلاغة والنقد إذ إنّ" الذي حدث في الواقع، هو أن التيار الآخر من الدراسات البيانية الذي كونه الفقهاء وعلماء الأصول هو الذي امتد تأثيره إلى الساحة البلاغية فصرف الناس عن الاهتمام بالخطابة، أي شروط وتقنيات إنتاج الخطاب البليغ إلى الانكباب على دراسة قوانين تفسير الخطابة المبين، وقد حصل ذلك بصورة خاصة عندما اشتغل المتكلمون، وفي مقدمتهم المعتزلة بقضية "الإعجاز القرآني"[2] حيث سيطرت فكرة الاستعانة بوسائل إنتاج الخطاب التي تقوم على آليات الاستدلال التي من خلالها يمكن تحقيق وإثبات المعارف والوصول إلى الحقائق قصد الإقناع الذي يقود بدوره إلى التفاعل أي العمل بها أو تبني أفكار جديدة أو حتى تغيير المفاهيم وهذا ما يسمى "الحجة" التي يؤتى بها في إثبات ما تسمى الحاجة إلى إثباته من العلوم التصديقية"[3] "وعليه فإنّ الحجة لها نفس دلالة "الدليل" وهو ما يلزم من العلم به العلم بشيء آخر "[4]. فالحجة هي كل ما يؤدي إلى الإثبات قصد التصديق فهي ذاتها الدليل، الذي لا بد أن يكون معلوما بعلم آخر إما استنتاجا أو استقراء أو تمثيلا. أما المتكلمون يطلقون الدليل على كل ما ينظر فيه بوعي للوصول عن طريقه إلى الخبر اليقين "غير أن الاستدلال باب واسع يكاد يرادف الانتقال من قول إلى قول على أساس وجود تلازم بينهما بصورة من الصور"[5] بينما الاستدلال فهو أوسع وأشمل من ذلك فهو يشمل عدة أقوال ينتقل منها الاستدلال بالتتابع بشرط أن يكون بينها تلازم.

وقد كان علماء التراث على ثقة تامة بهذه الحقيقة التي مفادها أنه لا يمكن تحقيق مشروع نقدي متكامل يقوم على أسس منطقية، برهانية إلا بالرجوع إلى طرق الاستدلال. وهذا ما يتضح جليا في كتاب "إعجاز القرآن" لأبي بكر الباقلاني.

المنهج الاستدلالي في كتاب إعجاز القرآن: يرى الباقلاني أن الوصول إلى إعجاز القرآن لا يحصل إلا بإعمال النظر والنظر هنا هو النظر الواعي الذي يتم عن طريق العقل وهو الاستدلال "فإن نظر الناظر وعرف وجه النقل المتواتر في هذا الباب، وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه"[6] والنظر حسب النص هو طلب الدليل أما المعرفة تعني الإدراك والفهم بينما العلم يعني به اليقين أي القناعة بالأمر، وهذا النص للباقلاني يتبين من خلاله المنهاج القويم الذي يلتمسه لإثبات الإعجاز ويكون بداية بالاستدلال الذي يقود إلى حسن الفهم والإدراك ومتى أدركت حقيقة الأمر أيقنت صدق الدليل فاقتنعت به "فالواجب أن نجعل نظرنا في الموجودات

بالقياس العقلي، وبيّن أن هذا النحو من النظر الذي دعا إليه الشرع وحث عليه، هو أتمُّ أنواع النظر بأتم أنواع القياس وهو المسمى "برهانا" [7]

فالنظر بالقياس العقلي هو الاستدلال الذي يوصل إلى حقيقة الأمور ويرفع عنها غطاء اللبس.

فيمكن القول أن إثبات الإعجاز يتم بداية بالاستدلال وهي عملية فكرية تقود إلى إدراك، وهي كذلك عملية فكرية يرجى منها الإقناع وبالتالي هي عملية تفاعلية. الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن يؤكد أكثر من مرة على أن الاستدلال هو منهجه والإثبات لا يكون إلاّ به إذ يقول: "والذي نرومه الآن ما بيناه من اتفاقهما في المعنى الذي وصفنا، وهو: أنه عليه السلام يعلم أن ما يسمعه كلام الله من جهة الاستدلال، وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على جهة الاستدلال"[8] وكذلك قوله "ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على ما بعده" [9]. وفي قوله" ونحن نذكر ثم نبين ما سألوا عنه ليكون الكلام واردا على أمر مبين مقرر وباب مصور "[10]. ويقول في موضع آخر" وإلى يومه ونحن نبين تمييز كلامه وانحطاط درجة قولهم ونزول طبقة نظمهم عن بديع نظم القرآن "[11]. ويذكر الاستدلال في قوله" فأما منهج القرآن ونظمه وتأليفه ورصفه فإن العقول تتيه في جهته وتحار في بحره وتضل دون وصفه ونحن نذكر لك في تفصيل هذا ما تستدل به على الفرض وتسولي به على الأمد وتصل به إلى المقصد وتصور إعجازه كما تتصور الشمس وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر"[12].

هذه أمثلة من نصوص كثيرة موجودة في "إعجاز القرآن" ما هي إلا دليل قاطع على أن الباقلاني كان على يقين تام بأن المنهج الاستدلالي هو المنهج الوحيد والأصلح الذي يقود إلى الحقيقة ونصل به إلى إثبات إعجاز القرآن فهو يذكر كلما تكلم عن وجه من وجوه الإعجاز منهجه الاستدلالي الذي لا يريد أن يحيد عنه "والذي نقوله في هذا: أن الأعجمي لا يمكن أن يعلم إعجازه إلا استدلالا، وكذلك من لم يكن بليغا "[13] إن درجة إدراك إعجاز القرآن تتفاوت بين الناس لكن مهما كانت هذه الدرجة فلابد لكل فرد منها أن يستدل على إعجازه، حتى البليغ يلزمه أن يصل إلى ذلك إلا بالاستدلال ويكون نظم القرآن هو استدلاله في ذلك في أن نظمه معجز فيمكن أن يستدل به عليه " [14] وفي هذه الحالة يصبح البليغ في مرتبة العربي عند نزول القرآن، فهو بفطرته يعلم أن نظم القرآن يختلف عن كل نظم عربي ولا يمكن أن يكون كلام البشر في هذه النهاية من البلاغة فيكون بذلك القرآن حجة على أهل اللغة العربية يستدلون به على إعجازهم، فلا يمكننا بذلك الفصل بين الحجة والاستدلال حيث أن الحجاج ما هو إلاّ عملية استدلالية في غالب الأحوال "فإن الفصل بين الحجاج والاستدلال يبدو مبالغا فيه

فالقول بأن المحاجاة عمل يظهر في الخطاب وتحديده البنية اللغوية للقول لا يعني بالضرورة إلى فهم منطقي"[15] "وإذا صح فهمنا فإن الحجاج ليس عملا لغويا وإنما هو نتيجة تنظيم مخصوص لأعمال لغوية أساسية في اللغة يوجهها المتكلم وجهة إقناعية بحسب مقتضى المقام الحجاجي"[16]، فالحجاج يعتمد على عناصر لغوية يستدل بها على صدق دعواه ولابد أن يحسن تنظيمها وترتيبها وتنسيقها حتى يمكن إخراجها في أحسن حال فإن كانت كذلك وقعت في المخاطِب كما أريد لها ذلك. " فتكون العلاقة بذلك بين الكلام الاستدلالي والبلاغة علاقة جزء بكل"[17].

وحتى يكون الكلام في علم المعاني كافيا، شاملا لابد أن نتطرق إلى الاستدلال فهو يرتبط ارتباطا وثيقا بالبحث في خصائص الكلام، "فمعرفة خواص تركيب الكلام الاستدلالي جزء من معرفة خواص تراكيب الكلام عامة"[18] ولقد ربط علماء الإسلام بين دلالة الألفاظ والمعاني التي تضيفها، كما أنهم توصلوا إلى أن الاستدلال هو الانتقال الذي يحصل لزوما بين طرفي الدلالة أي الدال والمدلول فالاستدلال هو اللزوم الذي يحصل أو نصل إليه من خلال شيء آخر "الدلالة على الشيء ما يمكن لكل مستدل الاستدلال به عليه"[19] وعلى هذا الأساس يكون الاستدلال على ما تفصح عنه الصيغة في العربية، طلب الدليل، يفترض معطيات ثلاثة على الأقل هي الدليل المطلوب والنتيجة وعملية الاستدلال الممثلة في العلاقة الرابطة بين الدليل والنتيجة[20].

ومن هنا يمكننا أن نصل إلى مفهوم الاستدلال بأنه عملية طلب الدليل لاستخلاص النتيجة ويطلب الدليل عادة لإثبات صدق القضايا أو إثبات كذبها وهذا النوع من الاستدلالات يكون في اللغة الصناعية بينما الاستدلال الذي يسعى إلى الإقناع هو من اختصاص اللغة الطبيعية ونتيجة فيه لا تكون بالضرورة يقينية لأن الهدف من هذا الإقناع والتأثير في المخاطِب، وهذا ما يسمى بالاستدلال الحجاجي الذي نلمسه في كتاب إعجاز القرآني للباقلاني حيث كثيرا ما ينطلق من مقدمات افتراضية أو مسلمات ويصل إلى نتائج غير يقينية من الناحية المنطقية كما أنه كثيرا ما يعتمد على مقدمات مضمرة، أو ينطلق من مقدمات ليصل إلى عدة نتائج.

آليات الاستدلال الحجاجي عند الباقلاني: لقد انتهج الباقلاني ما سطره من منهج استدلالي حجاجي في كتابه للوصول إلى حقيقة الإعجاز وهو الاستدلال وإن لم يطبقه تطبيقا منطقيا صارما في أغلب الأحيان وهذا ما يستدعيه حقل دراسته الذي يعتمد على اللغة الطبيعية التي تخضع لشروط المخاطِب والمخاطب والمقال "إن دلالة تعابير الاستدلال الطبيعي مشتركة وترتبط بالشروط الدلالية والتداولية لكل حوار"[21] على هذا الأساس تتولد دلالات كلما تغيرت ظروف هذه الشروط.

وآليات الاستدلال تتنوع في إعجاز القرآن وتظهر في جميع أنحاء الخطاب من بدايته إلى نهايته حيث شكلت السمة البارزة فيه فجاء هذا الخطاب التراثي أكثر دقة وموضوعية لإثبات الحقائق والرد على المشككين في هذه المسألة وهذا الاستنباط للأحكام والتحليل للأسباب والعلل يرمي إلى الإقناع والتأثير في المتلقي.

والنماذج التي سنتناولها بالتحليل والدراسة سنحاول من خلالها اثبات استغلال المنهج الاستدلالي في كتاب " إعجاز القرآن"

1-الاستدلال المباشر: هو استنتاج صدق أو كذب قضية ما باستخدام قضية واحدة مثل قولنا: كل درس مفهوم ←—— درس النحو مفهوم.

وهذا الاستدلال يكون دون واسطة ظاهرة أو ضمنية، ونجد هذا النوع من الاستدلال في قول الباقلاني " وما كان شعرا من أحد من الناس كان شعرا من كل أحد" [22] ومنه نستنتج أن ما لم يكن شعرا من أحد من الناس لم يكن شعرا من أحد، فصدق القضية الأولى يلزم عنه صدق النتيجة وكذب القضية يلزم عنه كذب النتيجة.

المقدمة	**ما كان شعرا من أحد الناس**
النتيجة	**كان شعرا من كل أحد**

ونأخذ مثالا آخر عن ذلك في قوله في الاستدلال عن أن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن من أهل العلم وعلى أنه كان أميا: " من كان يختلف إلى تعلم علم ويشتغل بملابسة أهل الصنعة لم يخف على الناس أمره" [23] ويتكون هذا المثال من مقدمة واحدة وهي أن يختلف إلى تعلم علم أو مخاطبة أهله يؤدي بالضرورة إلى علم الناس به وهي نتيجة نستنتجها مباشرة من المقدمة دون واسطة ويمكن تقديم هذا المثال بالشكل المنطقي التالي:

المقدمة	**من كان يختلف إلى تعلم علم ويشتغل بملابسة أهل الصيغة**
النتيجة	**لم يخف على الناس أمره**

2-الاستدلال غير المباشر: وهو الاستدلال القياسي وهذا النوع من الاستدلال يتكون من مقدمتين أو أكثر تؤدي إلى نتيجة تشتركان في حد واحد وهذا الحد المشترك يسمى الحد الأوسط، والحدان الآخران هما طرفي المطلوب وتلتزم عنه نتيجة، وكان الفقهاء واللغويون والمتكلمون قد اهتدوا، قبل أن يترجم المسند الأرسطي، إلى نوع من الاستدلالات نعتوه بالقياس وأصل فيه بديهي وهو أن حكم الشيء حكم اشتباه" [24]، والقياس الاستدلالي يتخذ صورا

مختلفة في الخطاب الطبيعي، فمنه ما يصرح فيه بالنتيجة أو بنقيضها في المقدمة، وهذا ما يعرف "بالقياس الاستثنائي " وهناك صور أخرى للقياس وهو القياس الحملي " هو الذي لا تكون نفس النتيجة، أو نقيضها مذكورا فيه بالفعل بل بالقوة أي بذكر مادته، لا بصورته في قولنا:

كل جسم مؤلف

كل مؤلف محدث

إذن كل جسم محدث

فالنتيجة ليست موجودة بالفعل في المقدمتين بل بالقوة أي بجمع الطرفين يحدث المطلوب"[25]. مثل ذلك " وقد قيل إن أقل ما يكون منه شعر أربعة أبيات بعد أن تتفق قوافيها ولم يتفق ذلك في القرآن بحال فأما دون أربعة أبيات منه أو ما يجرى مجراه في قلة الكلمات فليس بشعر"[26] ويمكننا تمثيل هذا المثال في الجدول التالي:

مقدمة كبرى	**وقد قيل إن أقل ما يكون منه شعر أربعة أبيات بعد أن تتفق قوافيها**
مقدمة صغرى	**ولم يتفق ذلك في القرآن بحال**
النتيجة	**فليس بشعر**

تمثيل الجدول على الشكل التالي:

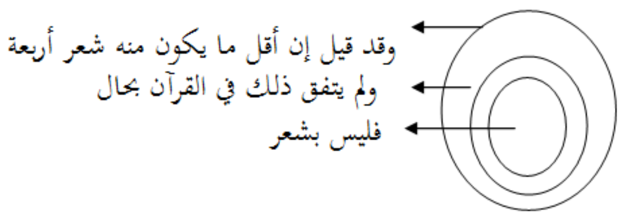

وهذا المثال نموذج للأقيسة غير منطقية حيث بناه على مقدمة افتراضية وكذلك النتيجة تكون غير يقينية والقياس الحملي يمكن أن يبنى من عدة قضايا نستخلص منها نتيجة أو عدة نتائج أخرى مثل قوله في اثبات أن الكلام الذي تتضح معالمه لا تخفى بلاغته عن أهل الصنعة " وإن اعرف ما يجري إليه الكلام، وينهي إليه الخطاب ويقف عليه الأسلوب، ويختص به القبيل، بان عند أهل الصنعة تمييزبه "[27] ويمكن تمثيل هذا المثال في الجدول التالي:

المقدمة الأولى	**أن أعرف ما يجري إليه الكلام**
المقدمة الثانية	**وينهي إليه الخطاب**
المقدمة الثالثة	**ويقف عليه الأسلوب**
المقدمة الرابعة	**ويختص به القبيل**
النتيجة	**بأن عند أهل الصيغة تمييز بابه**

3-القياس الشرطي: يتكون القياس الشرطي من مقدمتين تربط بينهما أدوات الشرط وينقسم القياس الشرطي إلى متصل وآخر قياس شرطي منفصل

والقضية الأولى فيه تسمى " مقدم " والثانية تسمى "تالي"

مثل قولنا: إذا نزل المطر ابتلت الأرض وفي هذا المثال يكون

المقدم: إذا نزل المطر

التالي: ابتلت الأرض

أ- القياس الشرطي المتصل: وفي هذا القياس تكون المقدمة الكبرى شرطية تفيد اللزوم ومن مقدمة صغرى استثنائية تثبت أو تنفي أحد طرفي المقدمة الكبرى والنتيجة تنفي أو تثبت الطرف الآخر والعلاقة بين المقدمتين هي علاقة وصل تعقدها أداة الشرط ويكون تحقيق القضية الثانية مشروط بتحقيق القضية الأولى.

ويمثل هذا النوع من القياس الشرطي المتصل قول الباقلاني في الاستدلال على أن أهل الاختصاص وأهل الفصاحة هم أحذق الناس بمعرفة أسرار اللغة من غيرهم " إن كنت من أهل الصنعة تعلم قلة الشوارد "[28] ويمكن أن نمثل هذا المثال بالكتابة المنطقية في الجدول التالي:

الرابط	إن
المقدم	كنت من أهل الصيغة
التالي	تعلم قلة الشوارد

ويتبين من هذا المثال أن الاستدلال في اللغة الطبيعية يتميز بإضمار المقدمات " لذلك أن المستمع يحتاج إلى أن يعرف أن الكلام ينطوي على معنى مضمر مخصوص، وأن يهتدي إلى طريق يوصله إلى معرفة ما أضمر"[29] وتضمر المقدمات في الاستدلال الحجاجي عادة حتى تكون أقوى وأكثر فاعلية بذكر ما هو ضروري حتى لا ينشغل المخاطب بما لا أهمية له.

ب-القياس الشرطي المنفصل: فهو يتكون كذلك من مقدمتين الأولى كبرى والثانية صغرى عملية استثنائية تثبت أو تنفي أحد طرفي العناد والنتيجة تثبت أو تنفي الطرف الباقي المثال التالي المأخوذ من إعجاز القرآن يوضح ذلك حين يستدل على معنى الثريا واختلاف المعاني التي وردت عليها في الشعر العربي أفضل بكثير من المعنى الذي جاء به امرئ القيس " فإما أن يكون قد عارضه أو زاد عليه"[30] ويمكن كتابة هذا المثال في الجدول التالي:

المقدمة الكبرى	إما أن يكون قد عارضه أو زاد عليه
المقدمة الصغرى	لكنه عارضه
النتيجة	إذن لم يزد عليه

والمقدمة الصغرى مع النتيجة يمكن استنتاجها من المقدمة الكبرى

كما أن القياس الشرطي المتصل أن يجمع بين قضيتين شرطيتين حيث يكون إثبات المقدم يلزم عنه اثبات التالي ويكون في نفس الوقت عكس ذلك مثل الباقلاني في إعجاز القرآن " لأن الأعجمي لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عجز العرب عنه وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إلها من كان من أهل صيغة الفصاحة فإذا اعرف عجز أهل الصيغة حل محلهم وجرى مجراهم [31]

وفي الشكل التالي تتضح الطريقة المنطقية في كتابه هذا المثال وهذه الطريقة تسمى عملية دوران المقدم مع التالي:

أي أن إذا كان م ← يلزم ن فإن نفي ن ← يلزم نفي م

المقدمة ← النتيجة يلزم	نفي النتيجة ← نفي المقدمة يلزم
الأعجمي لا يعلم ← إلا بأن يعلم أنه معجز يلزم عجز العرب	إذا عجز أهل الصيغة ← حل محلهم وجرى مجراهم يلزم التقدير (عرف عجز العرب) ← التقدير (علم عجزه عنه

والقياس الشرطي المنفصل يمكنه أن يتخذ شكلا آخر وهو ما يسميه الأصوليون بعملية السبر والتقسيم، الباقلاني نجده يستخدم هذه الآلية في قوله: "وهذا يدل على أنهم نسبوه في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة أو يكون محمولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر لدقة نظرهم في وجود الكلام وطرق لهم في المنطق وإن كان ذلك الباب إرجاعها هو عند العرب شعر على الحقيقة أو يكون محمولا على أنه أطلق من بعض الضعفاء منهم في معرفة أوزان الشعر وهذا أبعد الاحتمالات فإن حمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحا"[32] والمخطط التالي يوضح هذا النوع من الاستدلالات:

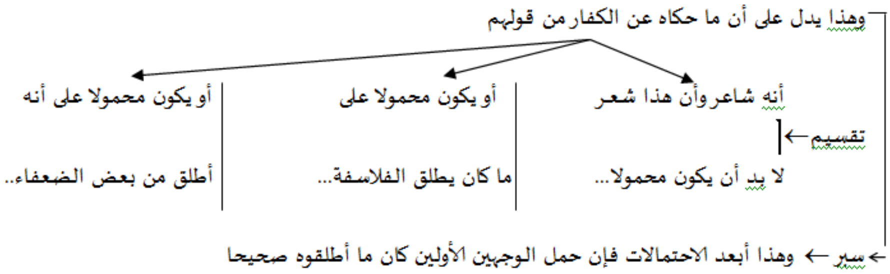

2- القياس التمثيلي: وهذا النوع من الاستدلالات غير المباشرة " فقد عرفه الشيخ الرئيس ابن سينا بقوله " الحكم على الشيء بحكم الموجود في شبيهة " [33] وهو يعتبر من أهم الأقيسة الاستدلالية وأكثرها انشغالا في اللغة الطبيعية على غرار اللغة الصناعية، فإن توالد العبارات يشترك فيه الخطاب الطبيعي من دون غيره، والسبب في ذلك يرجع إلى وجود اتساع في الاستدلال التمثيلي لا يوجد مثله في الاستدلال غير التمثيلي "[34] فاللغة تتسع اتساعا كبيرا للقياس التمثيلي حيث يمكن للمتكلم وباستخدام قدراته الفنية أن يقدم المعنى الواحد بطرق استدلالية شتى تتفاوت فيما بينها من حيث القوة. وهذا النوع من الاستدلال نجده يتوفر بشكل كبير في خطاب الباقلاني على غرار مختلف الاستدلالات الأخرى مثل قوله عندما يذم إفراط امرئ القيس في وصف مكان الآثار التي وقف بها بحيث يقول " وتحديد المكان على الحشو أحمد من تحديد امرئ القيس من ذكر سقط اللوى بين الدخول فحومل فتوضح فالمقراة لم يقنع بذكر حد حتى حده بأربعة حدود كأنه يريد بيع المنزل فيخشى أن يخل بحد أن يكون بيعه فاسدا أو شرطه باطلا "[35] وكذلك قوله " فهو كرقعة من جلد في ديباج حسن فهو يمحو حسنه، ويأتي على إجماله "[36]

وفي المثال الأخير يمكن توضيح العملية الاستدلالية بهذا المخطط الذي يتكون من الممثل والممثل به وأداة التمثيل.

الممثل	فهو يعود على الشعر امرئ لقيس
لممثل به	رقعة جلد في ديباج حسن
أداة التمثيل	الكاف

والقياس التمثيلي ينبني غالبا على مسلمات يبنى المخاطِب خطابه عليها لأنها تبدو ظاهريا أنها مقدمات يقينية " إن الاستدلال بالقياس التمثيلي يستند على المسلمات "الحوارية" و"الوصفية" و"البنائية" و"التراتبية" ويبنى على عمليات "التفريق والتثبيت والإلحاق " [37] ونجد أنه يبني قوله التالي من مسلمات " ويقولون إنه متى اختلف الروي خرج من أن يكون شعرا " [38]

وهذه المسلمة في المثال التالي حوارية وكذلك قوله " ونحن نعلم أن ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه عن تعلم، وإذا كان معروفا أنه لم يكن ملابسا لأهل الآثار وحملة الأخبار ولا مترددا إلى التعلم منهم ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فأخذ منه علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي"[39] وهذه المسلمات التي استند عليها الباقلاني في القول الأخير هي مسلمات وصفية، تراتبية تقوم على الإلحاق فالإثبات. وكذلك قوله في القياس التمثيلي "لو كان له مثل لكان ينقل إلينا ولعرفناه كما نقل إلينا أشعار أهل الجاهلية وكلام الفصحاء والحكماء من العرب"[40] وفي هذا النص يلحق الباقلاني في حكم عدم تواتر نقل تحدي العرب لقرآن بتواتر نقل الأشعار. والقياس التمثيلي يجمع بين قضيتين يجمع بينهم حكم العلة المشتركة والاستدلال يتخذ أشكالا متنوعة منها

الممثل	العلة	الممثل به	العلة
لو كان وجد له	النقل إلينا	أشعار أهل الجاهلية	النقل إلينا

1- الاستدلال بالاعتراض: فيه يتم تقدير اعتراضات الخصم، وهذا النوع من الاستدلال لا يكاد ينصرف عنه الباقلاني فنجد في أغلب الأحيان يضع نفسه أمام دعوى ولابد له من إثباتها أو نفيها أو أنه يفترض ما سوف يعترضه وكأنه داخل مناظرة وأتت في ذلك أقواله بأشكال مختلفة فمنها: "إذا قال قائل، وإذا قيل، وإذا ادعى ملحد،..." ونذكر من ذلك هذه الأمثلة: "فإن قال قائل فقد قدح الملحد في نظم القرآن وادعى عليه... فهل من فصل قبل الكلام على مطاعن الملحدة في القرآن..."[41] وقوله "فإذ ادعى ملحد أو زعم زنديق أنه لا يقع العجز عن الإتيان بمثل السور القصار... قلنا له إن الإعجاز قد حصل بيانه وعرف بما..."[42] وقوله " فإذا قال قائل فقد نجد في آيات القرآن... إنما تكون البراعة عندك منه في مقدار ما يزيد على الكلمات "[43] وقوله "والجواب عن هذه الدعوى التي ادعوها من وجود..."[44]

ويكون الاستدلال الاعتراضي بالمعارضة ببسط دليل الخصم ثم يتم ابطاله بعد ذلك مثل قوله: "كذلك كان يجب أن تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها ومتفردة وقد ثبت خلاف ذلك"[45] أو مثل قوله "من أهل خرسان يولعون بذلك ولكن الأصل الذي يبنونه عليه عندنا غير مستقيم"[46] أو مثل قوله" إنهم يتبعون القول حيث توجه بهم واللفظ كيف أطاعهم والمعاني كيف تتبع ألفاظهم وذلك خلاف ما وضع عليه الإبانة عن المقاصد بالخطاب"[47] ومن أهم خصائص الخطاب الاستدلال الحجاجي أنه يقوم على

1- إضمار بعض المقدمات: الغاية من الاستدلال الحجاجي هو الوصول إلى الإقناع بأقصر وأسهل الطرق الممكنة لذلك لأن كلما طال الكلام أدى إلى انصراف ذهن المخاطب إلى ما

لا يقصده المتكلم من ذلك ويقود حتى إلى الملل" "واضح أيضا أن الحجة الطبيعية تلجأ إلى الإضمار لوجود معارف مشتركة بين المستدلين بها"[48] كالمسلمات أو البديهيات وتعتبر الاستعارة من أهم وسائل الإضمار التي تستعمل في هذا النوع من الاستدلال مثل قول الباقلاني " تعود العبارات عن الغاية القصوى شيء لابد منه"[49]، أو كقوله عن الاستدلال بالشعر الجاهلي وتفاوته مع حرص الشعراء على التنافس فيما بينهم "فكل يضرب فيه بينهم ويفوز فيه بقدح ثم تتفاوت السهام تفاوتا وتتباين تباينا وقد تتقارب تقاربا على حسب مشاركاتهم"[50]

ولما كانت "استعارة مجاز عقلي بمعنى أن التصرف فيها في أمر عقلي لا لغوي لأنها تطلق على المشبه إلا بعد ادعاء دخوله في جنس المشبه به" [51] وجب بناؤها مبنية على مبدأ التعارض أي الإدعاء والاعتراض وهو أساس الاستدلال الحجاجي، ويراد بها الإقناع عن طريق الدليل الذي يقيمه المستدل في اثبات الصفة المشتركة بين المستعار والمستعار له ويستدل له حتى يدخله في جنسه "وأما الإثبات المقرون بالدليل أو قل الاثبات المدلل" فهو أن نصون الدلالة الأصلية للمستعار منه في حكمنا به على المستعار، على أن يبقى الجامع بينهما مطويا في النفس مكنونا في الضمير"[52]، فمن المعروف أن الاستعارة هي مجاز عقلي يقوم على أساس المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى القيمي، وبما أن "المشابهة أدل من غيرها على التعالق بين هذين المعنيين، فقد ظهر أن الاستعارة هي أدل ضروب المجاز على العلاقات المجازية"[53].

2-تقديم النتائج عن المقدمات: وهي عملية استنتاجية عكسية تقوم انطلاقا من النتائج أي الأحكام لا المقدمات ونعني بها الأسباب أو العلل التي أدت إلى هذه النتائج. والباقلاني كثيرا ما يستخدم هذه العملية في " إعجاز القرآن "مثل قوله " وهو أن هذا الخطاب إنما يستقيم إن خوطب به الخيال حال إقباله"[54]

ويمكننا كتابة هذا المثال في الجدول التالي كتابة منطقية:

النتيجة	إن هذا الخطاب إنما يستقيم
المقدمة (1)	إن خوطب به الخيال
المقدمة (2)	حال إقباله

وهذا النوع من الاستدلال الحجاجي يتميز به الخطاب الطبيعي لأن المخاطب في هذا النوع من الخطابات لا يهمه الترتيب بقدر ما يهمه الإقناع والتأثير.

3-توالد المقدمات من النتائج: هذه العملية تتابع وتسلسل في متوالية بحيث " تصبح النتيجة مقدمة لما بعدها "[55] وهكذا بالتسلسل " والأصل في هذا القانون الحجاجي هو قاعدة تخاطبية مقتضاها أن المتكلم يخبر المخاطب بأقصى ما يمكن من الفائدة "[56]، وهذه العملية

أنزله ليقع الاهتداء

الاستدلالية تعتمد على التلازمية الشرطية باستعمال التراكيب الشرطية المضمرة، "والتي تتضح عن طريق العلاقة المنطقية المتلازمة بين طرفيه"[57] والمثال التالي يضح هذه المتوالية الاستدلالية من قول الباقلاني " فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به ولا يكون كذلك إلا وهو حجته، ولا يكون حجة إن لم يكن معجزة " [58] والشكل الهندسي التالي يمثل هذه المتوالية الاستدلالية:

إلا وهو حجة

إن لم يكن معجزة

الاستدلال بالشواهد الجاهزة: كثيرا ما يستدل الباقلاني باستدلالات غير منطقية منها الشواهد الجاهزة من القرآن أو من السنة النبوية أو حتى من الشعر العربي لاسيما الشعر الجاهلي والخطب والرسائل والحكم والأمثال العربية وهي كثيرة لا يمكن حصر ها لذا لم نعمد إلى ذكرها كما نجده يعتمد على الاستدلال بالوصف أو بالتفصيل خاصة عند وصف الحياة العربية الجاهلية مثل قوله "وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة... "[59] وقوله "وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة الذلاقة ويتبجحون بذلك، ويتفاخرون بينهم"[60] كما يذكر صحة السند حتى يكون من الأدلة القاطعة التي تؤدي إلى الإقناع الذي لا يتأتى إلا عن طريق الحقيقة ويعتبر السند وهو دليل الدليل " وذلك أن السند وإن أتى صورة الدليل إلا أنه يقصد به إقامة الدليل على دليل سابق، فينزل منزلة " دليل الدليل " [61] مثل قوله: " فما كتب الحسن ابن عبد الله أبو أحمد العسكري قال: أخبرني محمد ابن يحي قال: أخبرني عبد الله بن الحسن قال: قال لي البحتري..."[62]

مراجع البحث وإحالاته:

1 - عباس أرحيلة، الأثر الأرسطي في النقد والبلاغة العربيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1999، ص 263.

2 - محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 6، 2000، ص31.

3 - شكري مبخوت، الاستدلال البلاغي، دار المعرفة للنشر، ط1، 2006، ص 162.

4 - التهانوي، كشاف إصلاح الفنون والعلوم، مكتبة لبنان الناشرون، ط1، ج1، 1999م، ص797 .

5 - التهانوي، كشاف إصلاح الفنون والعلوم، ، ص 162.

6 - الباقلاني، القاضي أبي بكر، إعجاز القرآن، دار ومكتبة الهلال، ط1، 1993، ص 24.

7 - ابن رشد "فصل المقال " في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، سرار للنشر تونس، 1994، ص 20.

8 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 134.
9 - نفس المصدر، ص 126.
10 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 61.
11 - نفس المصدر، ص 92.
12 - نفس المصدر، ص 145.
13 - نفس المصدر، ص 200.
14 - نفس المصدر، ص 222.
15 - شكري مبخوث، الاستدلال البلاغي، ص 173.
16 - نفس المرجع، ص 176.
17 - شكري مبخوث، الاستدلال البلاغي، ص 109.
18 - نفس المرجع، ص 109.
19 - أحمد، أحمد بدوي " أسس النقد الأدبي عند العرب " نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ص 101، عن التهانوي كشاف إصلاح الفنون، ج2، الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص284.
20 - ينظر، شكري مبخوث، الاستدلال البلاغي، ص18.
21 - د. حسان الباهي اللغة والمنطق بحث في المفارقات المركز الثقافي العربي، دارالآمال للنشر ط1، 2000، ص140.
22 - الباقلاني، "إعجاز القرآن "، ص 55.
23 - نفس المصدر، ص 35.
24 - العروي عبد الله، مفهوم العقل، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، ط 3، 2001، ص 44.
25 - محمد شطوطي، النظرية المنطقية عند الشيخ الرئيس ابن سينا، دار قربة الجزائر، ط1، 2007، ص 90.
26 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص55.
27 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 164، ص 165.
28 - نفس المصدر، ص 216.
29 - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي"اللسان والميزان"، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998، ص 151.
30 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 137.
31 - نفس المصدر، ص 42.
32 - نفس المصدر، ص 51.
33 - محمد الشطوطي، النظرية المنطقية عند الشيخ الرئيس ابن سينا، ص 210.
34 - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي"اللسان والميزان"، ص 295.
35 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 172.
36 - نفس المصدر، ص 174.
37 - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي"اللسان والميزان"، ص 293.

38 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 56.

39 - نفس المصدر، ص 34.

40 - نفس المصدر، ص 147.

41 - نفس المصدر، ص 191.

42 - نفس المصدر، ص198، ص 199.

43 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 163.

44 - نفس المصدر، ص 53.

45 - نفس المصدر، ص 46.

46 - نفس المصدر، ص 42.

47 - نفس المصدر، ص 175.

48 - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي"اللسان والميزان"، ص 256.

49 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 94.

50 - نفس المصدر، ص 127.

51 - القزويني، الايضاح في علوم البلاغة دار النشر بيروت ج1، ط2 1414 -1993، ص 216.

52 طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي"اللسان والميزان"، ص 309.

53 - نفس المرجع، ص 232.

54 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 171.

55 - حافظ إسماعيل علوي، " الحجاج مفهومه ومجالاته " عالم الكتب الحديث، الأردن، ج1، 2010، ص 82.

56 - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي"اللسان والميزان"، ص 397.

57 - نفس المرجع، ص83.

58 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 10.

59 - الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 31، ص32.

60 - نفس المصدر، ص24.

61 - طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي"اللسان والميزان"، ص135.

62 - نفس المرجع، ص99.